أيّامنا.. أيّامُهُم

رينة شربل

يا لروعة لقائنا بعد كلّ ما جرى!

كان قد مضى أسبوعان على غيابي. رجعتُ تاركة كلّ شيء. دمّرني الشوق. لم أعد أحتمل. وبعد أن كنت قد وعدته بنسيان إمكانيّة وجود أيّة علاقة بيننا، أعادتني اللهفةُ إليه. والتقيت به. غيابي أجّج شوقه هو أيضاً. كان يتدفّق رقّةً وحناناً وإغراءً. وعندما رحل جميعُ الأصدقاء، بقينا وحيدَيْن. رحنا نتحدّث إلى أن بلغ الحديثُ مرحلةَ ارتخاء العضلات والرغبةِ في الذوبان. امتدّت يدُه لتغمض عينيّ. استسلمتُ للعبته ورحتُ أحاول أن أقبضَ على إصبعه بفمي ولساني. وحين توقّفتُ، شعرتُ بشفتيْه تلتصقان بشفتيّ... وعادت الحياة تسري في عروق علاقتنا.

... اليوم راح يردّد من جديد رغبته في أن نتزوّج. ولكنْ لماذا نسعى دوماً للسقوط في رتابة حياتهم؟ حين التقينا منذ عشر سنوات، كان كلّ شيء مختلفاً: كنّا نحمل السلاح معاً، نقاتل معاً، ونحلم معاً بتغيير العالم. قتلني ذلك البريق الناطق بألف حقيقة في عينيه. كنت ألصق بشغفٍ وجهي بلحيته فينتابني إحساسٌ لذيذ بالدفء، وتحملنا النشوةُ إلى عالم آخر. كان وجودنا معاً بحدّ ذاته تحدّياً. وكنت أجد لذّة غريبة في التحدّي.

ألم يكن ذلك كلّه وهماً؟ كيف يمكن أن نكون وألاّ نكون في الوقت عينه؟ وكيف يتوغّل الخيالُ في مفاصل أيّامنا دون أن ندري؟

حتى لقاؤنا الجسديّ كان مختلفاً. رغبةٌ مجنونة تمزّق كياننا، تفجّر وجودنا باندفاع لا يوصف. كيف سقطنا في اللامعنى؟

... اليوم راح يردّد رغبتَه في أن نتزوّج. لم أعد أعرفه. أشعر بالنفور. إخَالُهُ يجرّني إلى التأقلم والاندماج. لا أريد. كنت أظنّه يشبهني ويرفضهم. لكنّه حزين، حزين. يقول إنّ ماضيه مشرّف. ثمّ يلعن اللحظةَ التي اختار فيها ذلك الماضي. يقول إنّه لا يستطيع الحياة بدوني، ثمّ يعجز عن قول كلمة «أحبك». يرفضهم ويسخر منهم، ثمّ يطلب الزواج. أيّ رجل هذا؟

تركته يمضي. يحمل معه تمنيّاتي اليائسة. إذا كان الزواج تلك العلاقة الحميمة به، إذا كان الزواجُ النومَ بقربه والحياةَ معه، إذا كان الزواج ذلك كلّه، فأنا لا أرفضه. لكنّ الزواج هو تلك المؤسسة التي تشرّع علاقاتنا، هو تلك الورقة التي تعترف فيها أنّك لا تستطيع التخلّي عنهم وعن قوانينهم، هو قالب يضعونك فيه لتتشكّل كما هم. أأشعُرُ بالخوف؟ الخوف من أن أتحوّل إلى نسخة عن أمّي وجدّتي وخالتي وعمّتي و.. و..؟ أم الخوف من فقدان حريّة أعتزّ بها؟ أم الخوف من السقوط في فراغِ أيّام لا معنى لها؟...

... اليوم راح يردّد من جديد رغبته في أن نتزوّج. شعرت أنّه يشبه أبي فهربت. رأيتني طفلة تريد أن تصبح امرأة، تحلم بسهرة راقصة، ثمّ تتلقّى صفعات مهينة في أذنيها: «يا ابنتي، انتبهي. الشبّان ماكرون. لا تدعي أحداً يلمسك». كنت طفلة، لكنّي غصت في قاع المهانة والذلّ.

أيّها العالم الأبله، كيف سمحتَ أن أصبح غير ما أنت عليه؟ كيف عشتُ فيك زهرةً غريبة لا تحلم إلاّ بتدميرك؟ حين التقيته في ذلك الصباح الماطر بالقصف والقنابل، ظننتُ أنّني تصالحت مع نفسي. انتصرتْ إرادتي وتحدّيتهم جميعاً. لكأنّني كنت في حلم طويل!... فهو يريدنا الآن أن نتزوّج!

أدور في شوارع مدينتي، فأراهم يبنون عالماً جديداً. يبصقون على أيامنا الماضية «القذرة»، ويشكّلون عالمهم. لكنّي آسفة. تلك «القذارة» كانت أفضل. كان الخوف والرصاص يمزقان أجسادنا، لكنّنا كنّا نطلق النار على هدف ما... الآن لا نار، ولا أهداف...

جاء برقّة رائعة يطلب منّي أن نتزوّج. نفذت رقّته إلى أعماق أعماقي. في الوقت عينه، أشعر أنّه ينصب لي فخّاً. أظنّ أنّني سأقع. ما الذي سينتصر حين أقع؟ المجتمع؟ التقليد؟ الرتابة؟ الج طريقاً مفتوحاً على كلّ الاحتمالات. غداً قد أقتل نفسي أو أقتله، وقد أتحوّل إلى جثّةٍ حيّةٍ تقوم بما عليها القيام به لتستمرّ العجلة في الدوران.

الزينة تملأ شوارعَ مدينتي، بريقُها يخطف الحقائق. لقد اقترب العيد. سيبدأ عامٌ جديد. لا شكّ أنّ التجّار يجنون أرباحاً طائلة.

بيروت